أسرار النفس

تأليف الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

للدكتور زكى المحاسنى

أحب أن أعرب عن خواطرى فى تأليف الفلسفة الحديثة . فإن كثيرا من كتبها التى صدرت فى السنوات الأخيرة كان مترجما إلى العربية من اللغات الغربية ، أو مقتبسا أو مصنوعا للطلاب يتدارسونه فى معاهدهم . ولم أجد سوى القليل من كتب الفلسفة بمعناها الصحيح الذى يكون دراسة للفكر والشعور ، وفيضا للتأمل ، أو حكما على المجتمع ، وتجربة ذاتية للمؤلف

من هذا القليل المنشور كتاب « أسرار النفس » للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى . ولقد شعرت وأنا أقرأ هذا الكتاب أنى أعيش فى عالم فلسفى مع الفلاسفة ، فرحت أجول فى صفحاته وآرائه بنظرى وعقلى . وكانت نفسى تنجلى كلما مضيت شوطا فى القراءة والتأمل . فما أجمل أن نقرأ صور العقول مرسومة على الصفحات ، يخاطبنا أصحابها بسديد من آرائهم ، ويزجون لنا بمناظر من نفوسهم

كتب الدكتور الأهوانى كتابه هذا بروح فلسفية مجربة . فليس هذا الأثر مدرسيا صنعه من أجل طلابه وتلاميذه ، وإنما جعله مرآة يستطيع كل مفكر أن يرى فيها نفسه ، وأن يتلمس عندها حسه . إنه تجاريب بسيكولوجية ، وتأملات فلسفية صافية فى الكون والفساد ، والحياة والمشاعر ، وفى وصف الأحاسيس ، والتشريح الروحى

مضيت فيه شوطا أستكشف معانى لمسى وشمى ، وأسبر أعماق ذوقى وسمعى ، لأجد عوالم لا تنتهى . ومن حظنا — مع قنائنا على الأرض — أن نمرح قليلا فى تفهم كوننا الذاتى ، ومعرفة أنفسنا ، لنطل على طبقة الحيوان الأعجم . وجميل بالفيلسوف البصير أن يدلنا على نفوسنا دلالة محكمة ، ويمضى بنا وهو حامل مصباحه الوقاد ليبدد لنا فى ظلمات نفوسنا أعوارها الدامسة

ما أقدر الدكتور الأهوانى على ربطه المذيق بالشم ، وما أجود فلسفته التى ركبها على محور نصبه بين الأذن والعين . العين هذا الإبداع الإلهى الذى تجلس من حواليه كل عبقريات المناظير وهى حيرى فى تكوينه ، حسرى عاجزة عن مجاراته » . كذلك كان المؤلف الحكيم يربط بين خلجات الأنفس ومشاعر الوجود ، داخلة إلى دنيانا الروحية من مسالك السمع وشقوق النظر . وحين تبحر فى تفصيل الذوق ذكرنى بقولة قالها فولتير وهى : « أستاذك ذوقك » وقد تناول فى هذا الفصل ذوق اللسان وأذواق الأرواح

ومن ههنا تتجه فلسفة هذا المفكر الأديب اتجاها اجتماعيا ينساب إلى أذواق الأقوام فى طعامهم ومعايشهم . وهل كان أجدى على الناس من البحوث التى تتناول روح الجماعات فى ذوقها وحسها . وحين فرغ من بابه الذى سماه : « على الدرب » استطعت أن أعرف منهجه فى التأليف . فهو يطرح الموضوع طرحا ، ثم يطرقه من أطراف شتى ليستنتج منه حقائق فى البشر والوجود ، يصوغ منها عظات بالغات ، ثم يطبق آخر الأمر أحكامه على بلده وقومه فينقد ويوجه أو يفند . فهو بذلك مفلسف أو مصلح

وأرانى أنظر فى فصول بكتابه لها لون آخر ، ولاسيما الفصل الذى فيه انتقال الفكر من إنسان إلى آخر . وهذا هاجس يعجبنى ، فقد جربت أن أنقل ما يدور برأسى إلى أناس معى ، فكنت أصيب قليلا وأنمر فى الخطأ كثيرا . وقفت مرة على جزار فى دمشق فرأيت النوم الدكتور سلمون يشترى لحما . وكان مبلا من مرض ، وأعصابه مكدودة . فلم أشأ أن أمازحه بشىء من التأثير الفكرى فما كدت أقف قريبا منه دون أن يرانى حتى التفت إلى وقال :

— لا تشفق على فإنى أستعيد قدرتى على قراءة الأفكار . وقد عرفتك الساعة تفكر فى انهدام نال أعصابى فتزهد فى مزاحك

وخرج الدكتور الأهوانى من انتقال الأفكار إلى السحر الذى يعرفه العامة فى مصر ، فساق شواهد من سحر الأقدمين منسوبة إلى عصر المحدثين ، ثم أجال الطرف فى شجون الروح وشؤونها ، وانتقالها وتعبيرها ، حتى أوشك أن يحطنا حول مائدة

خشبية تنقر الروح عليها نقرات هى رموزها الغيبية . ثم ألزم بحثه هذا مبضع نقده فشق به شعوذة الشعوذين ، وكذب الدجالين . وجره هذا البحث الأسطورى إلى بحث آخر هو أعلق بالحياة وأحلى ، هو الاتصال الروحى وقديما قيل : « بين الروح والروح سبيل »

قلت فى مستهل الكلام إن الدكتور الأهوانى فيلسوف عجرب . ففى كتابه كثير من الشواهد التجريبية . وكان خير المتفلسفة أهل التجاريب . . . وفى كل إنسان مقدرة على هذا الاتصال الروحى تبدو فيه قوية أو ضعيفة . ويعوزها الصفاء ، فكلما صفت خواطرنا ، ورقت نفوسنا ؛ اتصلنا بأرواحنا ، وهذا بعضنا إلى بعض ولو كان بيننا ضيق السدود . وقد سمعت بعض الصوفيين يعزى فى الحب نفسه ويقول :

— إنى لأعشقها من غير أن تعلم بى

ثم سدد بطرفه شطر الأفق وقال :

— لا أطمع بوصال ، حتى الزوال

كنت عصارى يوم فى القاهرة منذ ثلاث سنين ، مزمعا من الغداة عودة إلى دمشق ، وبى شوق ولهفة إلى رؤية صديق فقلت لا بد من ذلك قبل السفر . وانطلقت لأبحث عنه فى الدروب وإذا بى ألقاه فى غير مشقة بناصية « عماد الدين » فابتدرنى بقوله .

— والله خشيت سفرك دون أن أراك ، فأنا الساعة أبحث عنك

ويأبى على فيلسوفنا المؤلف طبعه فلا يفوت على قرائه ولا على نفسه بحثا هو اليوم من أطرف بحوث الفلسفة النفسية المعاصرة ؛ ذلك كلامه على الأحلام . وكنت أوثر أن يتفرغ هذا الصديق إلى كتاب بصنفه فى قضية الأحلام عند المسلمين والمفسرين كابن سيرين وأضرابه . وكيف تطورت الأحلام فى الفلسفة الحديثة حتى صارت من أروع البحوث فى التحليل النفسى عند الفلاسفة الفرويديين

ومنذا الذى خلا ليله من حلم . إننا لنرقد جميعا مثل الأطفال ، وحين يسيطر علينا الكرى بسحره الأزلى ويطرحنا فى المضاجع هناك ترف على جفوننا رؤى لا حد لها . رؤى زاهية التلوين ، أسطورية التكوين ، منسوجة من خيوط جنية . ونستفيق بغتة فلا نعلم لها سببا . تفر من أيدينا بمباهجها ونسيمها وجمالها الإلهى الذى لا مثيل له فى الوجود . فإذا حلمنا بخير وددنا لو كان حقا ، وإذا رأينا فى المنام شرورا فزعنا إلى اليقظة فحمدناها أن لم تكن الشرور جائحة فى الحقيقة

تلك أسرار نفوسنا . فمن يدلنا عليها ؟ . لقد صنع جميلا المؤلف الأهوانى فى أن يعرفنا بأنفسنا ، ويغوص بنا على أسرارها الرهيفة ، فكان كتابه أحد ذخائر العصر فى علم النفس الحديث . سأقول له حين ألقاه :

— لقد أدخلتنا إلى بيوت أنفسنا . وفى نفوسنا مجال لنظر لا ينتهى التطلع إليه مدى الحياة ...

فإذا بدأت كلامى على إيثارى لفلسفة التجريب أعجبت لحواشيم المؤلف فى كتابه حين ورد كلامه على المداوة والمودة فلم يقع فى نقص القادرين على التمام ؛ وأعان ببراعته على ردنا إلى نفوسنا — وقد تركناها — وكان له أسلوب المحدث المتبسط ، وقلم الكاتب المترسل . وحين انتهيت من قراءة كتابه ذكرت من أجله معجزة القرآن الكريم فى آيته النفيسة التى يقول فيها : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »

القاهرة زكي المحاسني

الهوامل والشوامل

لأبى حيان التوحيدى

تحقيق الدكتور أحمد أمين بك والأستاذ السيد صقر

من الشخصيات التى أضافت إلى تراثنا الأدبى والفكرى ثروة يعتز بها تاريخنا الأدبى ؛ والفكرى — أبو حيان التوحيدى — فقد رزقت هذه الشخصية من القدرة على الأداء الفنى الجميل . والتحليل النفسى العميق وإبداع ، آيات فنية لا تزال ترف نضارة على تتابع العصور . لقد وثب فن الأسلوب على يدى — التوحيدى — وثبة لم يستطعها غيره من كتاب النثر الفنى القديم ، وبلغ أسلوبه من الصفاء والعمق ما مكن له من أن يحتل الذروة بين أصحاب الأساليب .

ولكن هذه العبقرية قد قست عليها الأقدار فاستهدف صاحبها فى حياته لألوان قاسية من البلاء الذى أصابه فى رزقه

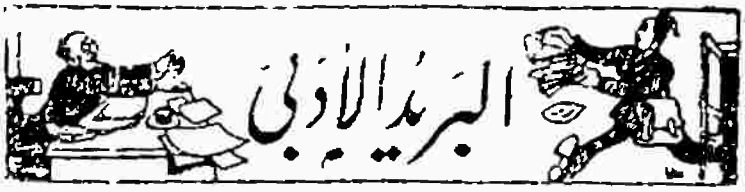

الرعايا هم العبيد :

أصدر الأستاذ خالد محمد خالد كتيبه الثاني (مواطنون لا رعايا) والكتيب — كما يتضح من عنوانه — إحدى صرخات الأستاذ في سبيل تصحيح الأوضاع الاجتماعية في هذا البلد

وكان طبيعيا أن يستقر هذا الكتيب في كل يد ، وأن تلتهم سطوره كل عين ، وكان طبيعيا أيضا أن تلفه أيدي الأفاضل من علماء الأزهر ، ولا عجب ، فالأمر أمس بهم وأدنى إليهم ، فالمؤلف عالم آثر الانطلاق والتجديد ، على التقييد والتقليد ، وأباح لعقله وفكره أن ينطلقا من إسار المتون والشروح ، والهوامش والحواشي ، إلى فضاء المجتمع العريض ، فعينه تقع على كل دقيقة فيه ، يرى بعض الناس كل الناس ، ومن بقي هملا ، قطعانا تسعى إلى ساقط العيش ، وترقل إلى دنيء الرزق ، وما هي بعالقة منه بطفاء ، ولا قريرة به عينا ، بل ساغبة لاغبة ، واجفة خائفة ، لا ترى فيما حولها هدوءاً ولا أمنا ، وأنى لها أن تحسن الظن ؟ أنى ؟ !

وتعرض الأستاذ الفاضل الشيخ عبد المتعال الصعيدي في العدد رقم (٩٣٦) من الرسالة الغراء للكتيب — أو بعبارة أدق لعنوانه — بالنقد : وكان كل ما أخذه على الكاتب أنه لم يكن موفقا في اختيار كلمة (رعايا) لأن المعنى الذي سيقت إليه في الكتيب هو الذلة والعبودية ، وهذا خلاف معناها في كتب اللغة والحديث ! والذي وقع فيه حضرة الناقد ، عين ما أراد المؤلف نفسه على أن تتخلص منه ، وتنفر عنه — !

لم يبحث الأستاذ الناقد عن معنى الكلمة في قاموس المجتمع الذي يلفظ أنفاسه ، تحت لذعات السياط ، وركلات الأقدام ، ولا في هذه المرق تشدها إلى بعضها مكبلة تستسلم سريعا لعوامل الفناء ، فوق أجساد عجاف !

ولا بين هذه الأكوام الآدمية التي تحظى دائما بامتهاد الفرش الوثيرة على جوانب الشوارع ، حشوها (الرائط والأسمنت والقار) وتسهد دائما بالتحاف الطبقات الرقيقة الرفيقة من نسائم الليل ، تداعب أوصالا تتداعى في إلحاف إلى الانحلال والفرقة !

لم يبحث الأستاذ الفاضل عن معنى تلك الكلمة بين ذلك

في مكانته ، ولاحق تراثه بعد أن خلا وجه الحياة منه فأحال بينه وبين الحياة . وظل هذا التراث يعاني مرارة الإهمال ؛ وظلم لتشويه هذا الأمد الطويل ؛ فإذا ما رزق — أبو حيان — من نقد آثاره ؛ وبحاسبها من بطش الظلم ؛ وبرأن الموت ، وينفض عنها غبار القبر ، فقد رد للحياة الجانب الخالد من شخصية الرجل العبقري . وكانت يد الدكتور — أحمد أمين بك — في نهوضه بنشر آثاره ، والعناية بإصلاح ما أفسده الدهر من كيانها ، وشوه من معالمها ، حتى شق على النظر إدراكها . وما أشقها من مهمة يدرك ما فيها من صعوبة ، وما تتطلبه من جهد لا يقوى على حمل أعبائه إلا من كان ذا عزيمة لا تنهى ؛ وثقافة أدبية ؛ ولغوية واسعة عميقة . وليس هذا مما يتأتى للكثير . وكتاب — الهوامل والشوامل — أثر من آثار — التوحيدي — الناضجة الحية . هو يدور على كثير من الأفكار التي كانت سدى ولحمة النسيج الفكري والأدبي ، في بيئة — التوحيدي — وعصره . قد أخذ — التوحيدي — يعرض هذه المشاكل الأدبية الفكرية ويجيب عليها — مكوبه — فالكتاب من هذه الناحية مرآة تنعكس أمام أنظارنا التيارات التي كانت تسود هذه البيئة . والكتاب بعد وثيقة تاريخية إذ هو يصور لنا مرحلة من مراحل تفكيرنا الأدبي والعلمي . وهو آية من آيات النثر الفني من حيث الأداء والتصوير . والأستاذ — أحمد أمين بك — حسنة لا تجحد بتهيئة الميدان للأستاذ — السيد صقر — وإفساح الطريق أمامه ليتمكن من أن يستغل مواهبه وثقافته في هذا الميدان الذي شب وترعرع مولعا به ؛ معتزا بالسير فيه . فكنت تراه وهو لا يزال في مطالع بواكير حياته الأدبية يعكف في — دار الكتب — الساعات الطوال بين المخطوطات القديمة يقرأ : وينقل ؛ ويستوعب ؛ وكانت الثمرة الأولى لهذا المجهود — تحقيق — ديوان علقمة الفحل — والأمل وطيد في انتظار الآثار التي يقدمها هذا الجندي في ميدان يشفق الكثيرون من اقتحامه ، وهو ميدان نشر تراثنا نشراً علميا دقيقا

محمد عبد الحليم أبو زيد
دبلوم في التربية وعلم النفس